معاني الغزل عند شاعرات الأندلس

أ.م.د. يونس هاشم مجيد جامعة ديالى / كلية التربية الأساسية

المقدمة

من خلال مطالعاتنا للأدب الأندلسي وقفنا على لون طريف من الشعر العاطفي عند شاعرات الأندلس يتسم بالجرأة في تعاطي معاني الغزل . ولذلك استقر رأينا على أن تكون (معاني الغزل عند شاعرات الأندلس) عنواناً لبحثنا ، وقد نظرنا فيما تجمع لدينا من معلومات حول الموضوع فرسمنا أن نسير فيه وفق خطة بسيطة تقوم على مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة وفهرس للمصادر وفي التمهيد نشرح ونبين الأسباب التي أدت إلى ظهور هذا اللون من الشعر وتناولنا في المبحث الأول معاني الغزل العفيفة (المحافظة) وفي المبحث الثاني : عرضنا معاني الغزل الجريئة (غير المحافظة) . أما الخاتمة فقد أوجزنا فيها ما تم عرضه خلال صفحات البحث فضلاً عن بعض الآراء والمعلومات التي لها صلة وثيقة به ، ثم وضعنا فهرساً للمصادر والمراجع التي اعتمدناها في بحثنا آملين النجاح في مسعانا والله ولي التوفيق .

التمهيد

لقد تناولنا في بحثنا معاني الغزل عند شاعرات الأندلس لأننا وقفنا من خلال مطالعاتنا للأدب الأندلسي على لون جديد من التعبير الأدبي يتسم بالجرأة والصراحة والقوة والعنف في التعبير عن عواطف المرأة الشاعرة وهذا اللون يعد ظاهرة جديدة في الأدب العربي في الأندلس ليس هناك ما يماثلها بهذه الحدة في الأدب المشرقي (لقد عرف المشرق العربي عدداً من الشاعرات .... أمثال الخنساء وليّلى الأخيلية وفضل وعلية بنت المهدي ونيران بنت جعفر بن موسى الهادي ... ولكن عدد هؤلاء قليل إذا ما قيس بعدد الشاعرات في الأندلس وقصائدهن محدودة الكم فضلاً عن خضوعهن إلى حد ما لتقاليد بعينها لم يستطعن أن يتعدينها في نطاق مجتمع المشرق العربي الذي مهما قيل في تبذله وانحلاله في فترات بعينها فأنه ظل يحاسب المرأة على قولها وفعلها)[(١)] .

ونضيف إلى ذلك أن عدد شاعرات الأندلس كان كبيراً ويكاد يضاهي الشعراء عدداً حيث (لم تقتصر الرغبة في الشعر والارتياض بنظمه على الرجال بل عدتهم إلى النساء فنبغ منهن شواعر يكدن يضاهين الشعراء عدداً وكان منهن طبقة من المحسنات البارعات كولادة بنت المستكفي وتلميذتها مهجة القرطبية وحمدة بنت زياد المؤدب المعروفة بخنساء المغرب وحفصة بنت الحاج الركونية وعائشة بنت أحمد القرطبية ونزهون القلاعية

١- الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه : د. مصطفى الشكعة ص ١١٧ ــ ١١٨ .

الغرناطية ... وكن جميعاً موصوفات بالجمال والظرف إلاّ عائشة فقد استغنت بالفهم والأدب والفصاحة)[١] .

وهناك أسباب كثيرة أسهمت بصورة مباشرة وغير مباشرة ـ وعلى المدى الطويل ـ في ظهور هذا اللون الشعري الذي يتسم بالجرأة والصراحة في تعبير المرأة الشاعرة عن عواطفها :

أولها : يتصل بدخول العرب المسلمين الفاتحين بلاد الأندلس : إذ أن دخول هؤلاء الفاتحين في الطوالع الأولى بلاد الأندلس كان على شكل جيوش نظامية ولم يصطحبوا معهم زوجاتهم وبعد فتحهم البلاد واستقرارهم فيها احتاجوا إلى زوجات فكان لابد لهم من أن يتزوجوا من النساء الإسبانيات النصرانيات [٢] وهؤلاء النسوة الاسبانيات النصرانيات كان لهن تأثير كبير في حياة أسرهن أولاً وفي حياة المجتمع الإسلامي في الأندلس ثانياً ، إذ أن الكثيرات منهن بقين على ديانتهن المسيحية التي فيها الكثير من التسامح في جانب العادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية التي يأباها المجتمع الإسلامي . وينقل أحد الباحثين المحدثين عن المستشرق الاسباني خوليان ريبيرا قوله إنّ كل الخلفاء الأمويين هم أبناء لنساء غير عربيات (وقد أقبل على هذا الزواج المختلط أول أمير عربي ولي أمر الأندلس بعد الفتح وهو عبدالعزيز ابن موسى بن نصير كما أقبل عليه غيره من العرب حيث شرع لهم أمراؤهم سنة الزواج بالاسبانيات حتى لقد ثبت أنّ جميع أمراء العرب وخلفاء الأسرة الأموية في الأندلس كانوا أبناء لغير عربيات) [٣] .

ويبالغ الأستاذ ريبيرا في بيان أثر هذا الزواج وفي غلبة الدم الاسباني على الدم العربي في عروق الأبناء وأنّ هؤلاء الأبناء لم يبق لهم من الدم العربي ـ بمرور الزمن ـ إلاّ قطرات قليلة تسري في عروقهم فيقول (وإذا كان الولد في الحقيقة ابناً لأبيه كما هو ابناً لأمه وإذا كانت خصائص الوراثة يأخذها الوليد عن أسرة أمه كما يأخذها عن أسرة أبيه إذا كان ذلك كذلك أمكن القول بأن العرب الداخلين قد ذابوا في الجنس الاسباني الذي يكاد يكون خالصاً)[٤] . وهذا القول وإن كان فيه الكثير من الحقيقة والصواب إلاّ أنه لا يؤخذ بحذافيره لأننا لا يمكن أن نجرّد العرب المسلمين في الأندلس من عروبتهم ودمائهم . والذي نريد أن نتوصل إليه مما سبق أن هؤلاء النسوة الاسبانيات النصرانيات حتى من أسلم منهن بقين ينظرن إلى الأخلاق وإلى المجتمع من خلال موروثهن الاجتماعي وديانتهن المسيحية وما فيها من تساهل في الجانب الخلقي وما فيها من مباحات يحرمها الإسلام[٥] .

٢ـ في الأدب الأندلسي : د. جودت الركابي ص ٦٣ .

٣ـ تاريخ الفكر الأندلسي : بالنثيا ص١ .

١ـ ينظر تاريخ الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة : د. أحمد هيكل ص٣٩ .

٢ـ م.ن: ص٣٩ .

٣ـ أنظر طوق الحمامة : ابن حزم ص٢٣٧ .

ويضيف أحد الباحثين قائلاً (يجب ألاّ ننسى عاملاً اجتماعياً هاماً ساعد على تقويض الأندلس وضعّف الروح الحربية في الأندلسيين وميلهم إلى الترف وهو تزوجهم أو تسريهم بالقوطيات ((الاسبانيات)) اللاتي أضعفن روح العروبة في أبنائهن)[1] .

وهنا يجب ألاّ ننسى خصائص الأندلسيين من الناحية الخلقية فبالرغم من محافظتهم على الأصول الأخلاقية العامة إلاّ أنهم كان لديهم ميل إلى التحرر والانطلاق وحب للترخص وبغض للتزمت ومن هنا كانوا يكلفون بالشراب كما كانوا يهيمون بالموسيقى والغناء والرقص وهي فنون ربما كانت أنسب شيء إلى ظروفهم النفسية المطالبة بنوع من التنفيس [2] والذي يجذب الأندلسيين إلى التحرر والانطلاق والتجديد (بعد بلادهم عن الشرق واختلاط عناصرهم بعناصر أجنبية عن العرب واتصالهم بمؤثرات تفتح أعينهم على كثير مما ليس في تقاليد الحياة الإسلامية العربية)[3] .

ثانياً : الحرية والتسامح الديني . لقد حمل المسلمون معهم ‘إلى البلاد الجديدة روح الرسالة الإسلامية المتسمة بالتسامح والعدل والمساواة انطلاقا من قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات:١٣).

وقوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة:٢٥٦)وعليه عامل المسلمون أصحاب الديانات السماوية (المسيحية واليهودية) في بلاد الأندلس معاملة تتسم بالتسامح والعدل لذا تركوا لهم حرية الاعتقاد وحرية ممارسة شعائرهم وطقوسهم الدينية فتجاورت المساجد مع الكنائس واختلطت أصوات المؤذنين بأجراس الكنائس ولم يكن هناك أي تعصب من جانب المسلمين إذ (أن المجتمع الأندلسي لم يعرف التعصب الديني من جانب المسلمين فقد تركوا لأهل الكتاب من نصارى ويهود حرية العقيدة والتعبد منذ الفتح الإسلامي وظل العهد الذي أخذه عبدالعزيز بن موسى بن نصير على نفسه قبلهم من حرية العبادة والحفاظ على معابدهم قائماً طوال عصور المسلمين في الأندلس . إلاّ في حالات قليلة شاذة لا تدخل تحت حكم أو تندرج تحت مبدأ ، بل إن كثيراً من النصارى واليهود احتلوا مراكز سامية في الحكم وتسنموا مراتب ممتازة في الحياة العامة فكان منهم الوزراء والشعراء والأطباء والموسيقيون)[4] .

وإلى جانب الحرية الدينية أو حرية العبادة والاعتقاد كانت هناك الحرية الاجتماعية ، حرية الأفراد في ممارسة حياتهم ونشاطاتهم الاجتماعية والتعبير عن أفكارهم وآرائهم ما دامت لا تمس أمور الدين والسياسة ولذلك أسرف الناس في متعهم ومسراتهم وتفننهم في اقتناص اللذات فقد (كنت ترى حياة الدعة والتساهل منتشرة ، فقد كانت الحياة الخاصة متعة متصلة الحلقات وهنا تبدو الحرية ما دامت لا تتصل بأمور السياسة والدين والحكم ... ولهذا كنت ترى الأندلسي يتهتك دون وازع وقد انغمس الشعراء والكتاب في حمأة الدعارة

٤- في الأدب الأندلسي : ص٥٤ .
٥- أنظر الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة : ص٥٦ .
٦-م . ن : ص٥٨ .
١- الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه : ص٧٥ .

ونطقت ألسنتهم بأفحش الأقوال وامتدت هذه الحرية إلى الملوك . فرأيتهم يرخون العنان للهوهم وطربهم ولهو الناس وطربهم ما دام هذا اللهو وهذا الطرب لا يمسّان الدين الذي له حرمته في النفوس فانتشرت الخلاعة وعمت مجالس اللهو وساءت الأخلاق وكان ضرر هذا التسامح أبلغ من أثر التعصب إذ فسدت النفوس فاستسلمت للراحة والدعة ...)[١] .

ومن أمثلة هذه المجالس اللاهية ما يرويه الفتح في المطمح عن مجلس مزج فيه الجد بالهزل قد أقامه الوزير أبو عامر بن شهيد ليلة سبع وعشرين من رمضان حيث كان له موضع بباب الصومعة من الجامع لا يفارقه أكثر نهاره ولا يخليه من نثر درره وأزهاره [٢] .

ومن مظاهر هذه الحياة اللاهية أيضاً علاقة الشعراء وغير الشعراء بالمسيحيين والمسيحيات من سكان الأندلس وعندما يحدثنا الشعراء عن هذه العلاقات لا يكتفون بتصوير الجانب اللاهي من الحياة الأندلسية وإنما يقدّمون لنا معلومات ذات قيمة عن حياة هؤلاء المستعربين ... وعن الحرية التي كانوا يتمتعون بها في قيامهم بشعائرهم الدينية وعن اختلاط المسلمين الأندلسيين بهم اختلاطاً كبيراً)[٣] .

ومن صور هذه الحياة اللاهية مجالس الأنس واللهو التي كانت تعقد في قصور الملوك والأمراء وما يجري في تلك المجالس من شرب ورقص وفكاهة فقد عزم المنصور بن أبي عام ذات يوم (على الانفراد بالحرم ، فأمر بإحضار من جرى رسمه من الوزراء والندماء وأحضر ابن شهيد في محفة لنقرس كان يعتاده وأخذوا في شأنهم فمرّ لهم يوم لم يشهدوا مثله ووقت لم يعهدوا نظيره وطما الطرب وسما بهم حتى تهايج القوم ورقصوا وجعلوا يرقصون بالنوبة حتى انتهى الدور إلى ابن شهيد فأقامه الوزير أبو عبدالله بن عباس فجعل يرقص وهو متكئ عليه ، ويرتجل ويومئ إلى المنصور وقد غلب عليه السكر :

هاك شيخاً قاده عذر لكا	**قام في رقصته مستهلكا**
لم يطق يرقصها مستثبتاً	**فانثنى يرقصها مستمسكا**
عاقه عن هزّها منفرداً	**نقرس أخنى عليه فاتكا**
من وزير فيهم رقاصة	**قام للسكر يناغي ملكا**
أنا لو كنت كما تعرفني	**قمت إجلالا على رأسي لكا**
قهقه الإبريق مني ضاحكاً	**ورأى رعشة رجلي فبكى**

.... وكان حاضرهم ذلك اليوم رجل بغدادي ... فلما رأى ابن شهيد يرقص قائماً مع ألم المرض الذي كان يمنعه من الحركة قال : لله درك يا وزير ! ترقص بالقائمة وتصلي بالقاعدة ، فضحك المنصور وأمر لابن شهيد بمال جزيل ولسائر الجماعة وللبغدادي)[٤] .

وقد تمتعت المرأة الأندلسية بنصيب وافر من هذه الحرية المسرفة والمؤذية في كثير من الأحيان (ولعلّ كثرة عدد الشاعرات الأندلسيات ... يعطي صورة توحي بأن

٢- في الأدب الأندلسي : ص٤٨ .
٣- ينظر المطمح : ابن خاقان ص ١٩١ – ١٩٢ .
١- المطمح :ص ١٩٤ وانظر في الأدب الأندلسي ص ٤٩ – ٥٠.
٢- النفح : ٣/٢٦١ .

نصيب المرأة الأندلسية من العلم والمعرفة والتحرك كان أكثر من نصيب أختها في المشرق فقد كان بعض المتأدبات يترددن على منتديات الرجال الأدبية كما كان لبعض النساء أيضاً منتديات أدبية يؤمها الرجال والنساء على حد سواء ولعل ندوة ولاّدة بنت المستكفي تعتبر مثالاً لهذا اللون من النشاط النسائي وتحرك المرأة في الأندلس)[١] .

وهذه الحرية دفعت عدداً من شاعرات الأندلس إلى الإسراف في التعبير عن عواطفهن بل إلى التبذل والانحدار والبذاءة في القول (فقد روي شعر مكشوف لبعض الشاعرات الشهيرات مليء بأسباب البذاءة وألفاظ السوقة وأسماء عورات الجنسين على السواء وكان هذا الشعر النسائي ينشد في المجتمعات ويحفظ ويذيع)[٢] .

ويمكن أن نضيف إلى ما سبق من أسباب شعر الغزل وبواعثه سبباً مهماً وهو جمال الطبيعة الأندلسية التي كانت تستحث مواهب الشعراء وتذكي قرائحهم (فقد منح الله الأندلس طبيعة فاتنة فكانت أغنى بقاع المسلمين منظراً وأوفرها جمالاً ترتفع فيها الجبال الخضراء وتمتد في بطاحها السهول الواسعة وتجري فيها الجداول والأنهار وتغرّد على أفنان أشجارها العنادل والأطيار ... وقد كان من أثر جمال الأندلس أن شغفت بها القلوب وهامت بها النفوس فتعلق بها الأندلسيون جميعاً وأقبلوا يسرحون النظر في خمائلها ويستمتعون بمفاتنها ما شاء لهم الاستمتاع)[٣] وهذا الجمال جعلهم يرون في بلادهم جنة الخلد بأنهارها وظلالها وأشجارها يقول ابن خفاجة :

يا أهل أندلس لله دركـم	**ماء وظل وأنهار وأشجار**
ما جنة الخلد إلاّ في ديـاركم	**ولو تخيرت هذا كنت أختار**
لا تختشوا بعدها أن تدخلوا سقراً	**فليس تدخل بعد الجنة النار**[٤]

ويرى أحد الباحثين أن شعر الغزل (كان ينساب على شفاه الشعراء ويدعو إليه كل ما في الأندلس من طبيعة جميلة وحياة حضرية ناعمة ومجالس أنس ورخاء وخمر وغناء ...كما أن أسواق النخاسة التي كان يباع فيها الجواري والغلمان قد شجعت هذه الحياة اللاهية التي وجد الغزل فيها مرتعاً سهلاً)[٥] .

وهناك مسألة تلفت النظر وهي جديرة بالاهتمام وتتمثل في أن شعر الطبيعة عند الأندلسيين مرتبط بالغزل والخمر . (وهو طريق إليهما ولذا فقد رأينا شعراء الأندلس لا يذكرون الطبيعة إلاّ في رحاب الحب بل لا يذكرون الحب إلاّ في رحاب الطبيعة ، وهم بهذا يمنحون غزلهم لوناً بهيجاً من الجمال تقدمه الطبيعة التي تضم خلواتهم وتفسح لهم مجال اللهو والشراب)[٦] .

وإذا نظرنا إلى معاني الغزل عند شاعرات الأندلس فأننا نراها تسير في اتجاهين الاتجاه الأول : يمثل معاني الغزل العفيفة (المحافظة) أما الاتجاه الثاني : فإنه يمثل معاني

٣- النفح : ٢٩٥/٤ ،وانظر الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه : ص ٤٦.
١- الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه : ص ٤٦ .
٢- في الأدب الأندلسي : ص ١٣٠ – ١٣٢ .
٣- ديوان ابن خفاجة : تحقيق السيد مصطفى غازي ص ٣٦٤ دار المعارف ، ١٩٦٠ .
٤- في الأدب الأندلسي : ص ١٢١ .
٥- م . ن : ص ١٣٣ .

الغزل الصريحة الجريئة (غير المحافظة) . كما نلاحظ قضية أخرى وهي أننا نقف على المعاني باتجاهيها عند الشاعرة الواحدة . فبعض الشاعرات تقول شعراً محافظاً يتسم بالرزانة والعفة واستقامة المعاني وذلك في مطلع حياتها وباكورة شعرها ولكنها ما أن يقوى عودها ويشتد ساعدها وتستفحل شياطينها حتى نراها تقول شعراً آخر فيه الصراحة والجرأة ومفارقة الحشمة بل تقترب أحياناً من الإسفاف والبذاءة في القول .

ويشير أحد الباحثين المحدثين إلى مسألة تأثر شعر المرأة الأندلسية بالزمن وبالحياة وتطورها والظروف الاجتماعية والاقتصادية ... الخ إذ يقول : (ونستطيع أن نقرر أن المرأة الشاعرة كلما كانت قريبة العهد بزمان الفتح كانت أقرب إلى عروبتها وبالتالي إلى حشمتها والارتباط بأسباب التحرّز في القول والتردد في الجرأة والابتعاد عن الإسفاف وتجنب الفحش ، وكلما بعد العهد بها وانغمست في صلب ((الأندلسية)) كانت أقرب إلى التحرر الذي هو في حقيقته ـ من ناحية القول على أضعف الإيمان ـ تحلل أكثر منه تحرراً ، وأصبحنا نقرأ للمرأة في موضوعات الشعر وأساليبه من خلال جرأة القول والهجوم على معاني الفحش ما قد قرأناه عند بعض الشعراء المشارقة المتحللين بحيث لا نكاد نحس فارقاً بينهما)[1] .

المبحث الأول

معاني الغزل العفيفة (المحافظة)

وهي تلك المعاني التي لا تخدش الحياء وتتقبلها النفوس السليمة والفطرة السوية والتي يرتضيها المجتمع .

وإذا بحثنا عن المعاني المحافظة التي عبرت عنها شاعرات الأندلس فإننا نراها تتباين بين الإعجاب الممزوج بالحب وبين إظهار شخصيتها وإبداء الدلال والتيه والكبرياء . ومنها شكوى الفراق وبعد الحبيب أو الحديث عن الحبيب الغائب ومنها الحديث عن الوشاة وما يقومون به من أفعال شائنة وهناك الشكوى لكنها الشكوى الهادئة بصوت خافت أو أن تتغزل الشاعرة غزلاً رقيقاً تمزج فيه بين الحب والعطف والإعجاب ، وأحياناً تكون المعاني معبرة عن السرور الذي تمازجه دموع الفرح بقرب موعد لقاء الحبيب ومن تلك المعاني الغيرة من كل شيء وغيرها من المعاني الأخرى .

وتعد حفصة بنت حمدون الحجارية رائدة شعر الغزل من بين شاعرات الأندلس إذ طرقت هذا الباب طرقاً خفيفاً ومهدت السبيل لمن جاء بعدها (وقد طرقت للمرأة الأندلسية باباً لم تكن قد جرت على طرقه بعد ، إنّه باب الغزل طرقته بخفة وتردد وتحفظ ... فهيّأت السبيل للشاعرات بعدها أن يفتحنه ويدلفن من خلاله إلى ساحة الغزل بكل ما حوت من فنون وأساليب على سعتها وعمقها)[2] .

وحفصة من شاعرات المئة الرابعة وهي من وادي الحجارة [3] . ونراها تعجب بشخص تكنّيه بابن جميل تعجب بجمال خلقته وحسن خلقه وهو إعجاب وانبهار قد تغلغل

١- الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه :: ص ١١٨ .

١- م . ن : ص ١٣٣ .

٢- النفح : ٢٨٥/٤ .

إلـى أعمـاق نفسها وشعورها فعبّرت عنـه شعراً رائعاً عذباً جميلاً ممزوجاً بـالغزل العذب الرقيق الذي يومئ إلى عاطفة ما نحوه إذ تقول[١] :

رأى ابن جميل أن يرى الدهر مجملا — فكل الورى قد عمهم سيب نعمته
له خـلق كالخمر بعد امتزاجــها — وحسن فما أحلاه من حين خلقته
بوجه كمثل الشمـس يدعو ببشـره — عيوناً ويعشيها بإفـراط هيبـته

ولهـا شـعر رقيـق تعبـر فيـه عـن كبريائهـا واعتزازهـا بنفسها وكرامتهـا كـامرأة تجـاه الحبيب الذي يدل بجماله وكبريائه وترى أنها لا تقل عنه شأناً إذ تقول[٢] :

لي حبيب لا ينثنــي لعتـاب — إذا مــا تركتـه زاد تـــيهاً
قال لي هل رأيت لي من شبيه — قلت أيضاً وهل ترى لي شبيها

ومـن شـعرها العـذب الـذي يظهـر وحشتها وجزعهـا ولهفتهـا وذهولهـا لفـراق أحبتهـا قولها[٣] :

يا وحشتـــي لأحبتـــي — يا وحشـةً متماديـه
يـا ليلـــةً ودّعتـــهم — يا ليلـةً هي مـا هيه

ومـن شـاعرات القـرن الخـامس الهجـري الشـاعرة الغسّـانية. وهـي مـن منطقـة بجانـه التابعة لإقليم المرية من جنوب بـلاد الأنـدلس وهـي شـاعرة متمكنـة وشعرها يتسم بالأصـالة والعمق ولها على القول تمرس وسلطان وما وصل إلينا من شعرها قليل[٤] .

ولهـا أبيات شعرية تتسم بصدق العاطفة وعمقها وأصـالتها قالتهـا فـي الغزل وشكوى الفراق وفيها أماني بعودة أيام الوصـال ودعوة إلـى الصبر علـى فـراق الأحبـة إذ بـانوا حيث تقول[٥] :

أتجزع أن قالوا سترحل أظعـان — وكيف تطيق الصــبر ويحك إذ بانوا
وما هو إلاّ المـوت عنـد رحيلهم — وإلاّ فعيش تجتنى منــه أحــزان
عهدتهم والعيش فـي ظل وصلهم — عتاب ولا يخشى على الوصل هجران
ليالي سعد لا يخاف على الـهوى — عتاب ولا يخشى على الوصل هجران
ويسطو بنا لـهو فنعتنق المنــى — كما اعتنقت في سطوة الريح أفنـان
ألا ليت شعري والفراق يكون هل — تكونون لي بعـد الفراق كما كانـوا

إنّه شعر جميل رائع فيه حب وشوق ولوعـة وفيـه قوة وتمكن واقتدار وأنـه لينساب انسياباً بمعانيه وألفاظه .

ومن المرية أيضاً تطالعنا الشاعرة زينب المرية التي تعلن شكواها ووجدها بحبيبها وأن وجدها بهذا الحبيب يفوق حب الناس وحزنهم لفراق أحبتهم والبيت الأخير فيه الصدق

٣- النفح : ٢٨٥/٤ .
٤- م . ن : ٢٨٥/٤ .
٥- م . ن : ٢٨٦/٤ .
٦- أنظر الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه : ص١٤٤، وانظر ، الصلة : ٦٧٥/٢ .
١- جذوة المقتبس :ص٤١٣

والعفوية فغاية المحب أن يفوز برضا المحبوب نفسه وأنه يسعى لإسعاده ووده . وذلك في قولها(١):

يا أيها الراكب الغادي لطيتــه　　　عرّج أنبئك عن بعض الذي أجد
ما عالج الناس من وجد تضمنهم　　　إلاّ ووجدي بهم فوق الذي أجد
حسبي رضاه وأني فـي مسرتـه　　　ووده آخر الأيام أجتــهد

ومن شاعرات القرن الخامس الهجري الشاعرة (حمدة ويقال حمدونه بنت زياد المؤدب من وادي آش ، وهي خنساء المغرب وشاعرة الأندلس)(٢) واشتهرت حمدونة بوصف الطبيعة إلى جانب شعر الغزل ولا عجب في ذلك فقد نشأت في واد آش وهو واد جميل غير بعيد عن غرناطه وقد وصفته وصفاً رائعاً(٣) .

إنّ جمال الطبيعة يؤجج المشاعر ويثير العواطف والأحاسيس ولذلك فإنّ الشاعرة حمدونة لم تقتصر في شعرها على وصف واديها الجميل بل جعلت لنفسها وعواطفها وقلبها جانباً من ذلك الشعر لأنّ قلبها كان يخفق بالحب الذي أثار حفيظة الواشين الذين عملوا على إيقاع الفرقة بين الحبيبين حيث تقول(٤) :

ولما أبى الواشون إلاّ فراقنا　　　وما لهم عندي وعندك من ثـار
وشنوا على أسماعنا كل غارة　　　وقل حماتـي عند ذاك وأنصاري
غزوتهم من مقلتيك وادمعي　　　ومن نفسي بالسيف والسيل والنار

ومن الشاعرات اللواتي قلن شعراً غزلياً عفيفاً الشاعرة أم العلاء بنت يوسف الحجارية وشعرها الغزلي يفيض رقة وعذوبة وحياءً إذ تقول(٥) :

كل ما يصدر منكم حسن　　　وبعلياكم تحلى الزمن
تعطف العين على منظركم　　　وبذكراكم تلـذ الأذن
ومن يعش دونكم في عمره　　　فهو في نيل الأماني يغبن

ويعلق أحد الباحثين المحدثين على الأبيات قائلاً(أي استحياء هذا الذي يتمشى في أردان هذا الغزل الرقيق أنه من رقته يكاد يكون شيئاً أرقى من الغزل إنه عطف وحنان واعجاب واطراء ومديح لقد جمعت الأبيات الثلاثة كل هذه المعاني ومن خلال هذه المعاني يطل الغزل برأسه مرتجفاً مستحيياً بل متواضعاً لكنه تواضع لا ينال من عمقه ولا يقلل من شأن أبعاده وهل هناك غزل أرق وآدب من هذا القول)(٦) .

ولها أبيات أخرى في الشكوى والعتاب ولكنها الشكوى بصوت مكتوم إنها صراخ لكنه صامت وذلك في قولها(٧) :

افهم مطارح أحوالي وما حكمت　　　به الشواهد واعذرني ولا تلم

٢-م . ن : ٢٨٦/٤ .
٣-م . ن : ٢٨٧/٤ .
٤-م . ن : ٢٨٨/٤ .
٥-م . ن : ٢٨٧/٤
١- النفح : ١٦٩/٤ .
٢- الأدب الأندلسي فنونه وموضوعاته : ص١٧٤ .
٣ – النفح : ١٦٩/٤ .

ولا تكلني إلى عذر أبينه شرّ المعاذير ما يحتاج للكلم
وكل ما جئته من زلة فبما أصبحت في ثقة من ذلك الكرم

وإذا ما تركنا الشاعرة أم العلاء بنت يوسف نلتقي شاعرة أخرى من شاعرات القرن السادس الهجري ألا وهي حفصة بنت الحاج الركونية وتعد حفصة نموذجاً فريداً لشعر النساء العاطفي في الأندلس فقد عاشت حياة حب عاصف كان طرفها الآخر الوزير الشاعر أبو جعفر بن سعيد الذي لم يكن في بني سعيد أشعر منه والذي أصبح وزيراً وكاتباً للحاكم الموحدي أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن(١) .

وتعد (قصة العلاقة بين حفصة الركونية وأبي جعفر بن سعيد وما أججته تلك العلاقة من مشاعر وأفرزته من نظم خير نموذج لشعر النساء العاطفي المصبوغ بصبغة واقعية ، المرتبط بصورة وجدانية عميقة بحياة قائلته وعواطفها وانفعالاتها أو هو بمجموعه يشكل فصلاً حياً من مسرحية عاشتها الشاعرة وعانت ما فيها من حرقة الانتظار والترقب وفرحة اللقاء والوصال وقاست بسببها هموم البعد والهجران ونار الغيرة والشك التي تتأجج مع توهج الحب واضطرام لظاه في الأحشاء(٢)) .

ولقد قالت الشاعرة حفصة شعراً غزلياً يمثل الاتجاهين الشعر المحافظ العفيف والشعر الذي فيه جرأة وخروج عن المألوف ونحن نتكلم هنا عن شعرها المحافظ فمن شعرها العفيف ومعانيها المحافظة أبيات قالتها في حبيبها الذي نأى عنها ولكنها لا يمكن أن تنساه لأنه يسكن في حشاها حيث تقول(٣) :

سلام يفتّح في زهره الـ كمام وينطق ورق الغصون
على نازح قد ثوى في الحشا وإن كان تحرم منه الجفون
فلا تحسبوا البعد ينسيكم فذلك والله ما لا يكون

ويلتقي الحبيبان في أحد متنزهات غرناطة الجميلة في بستان (حور مؤمل) حيث الخضرة والظلال والأطيار والأنسام والأنهار وحين يأذن الوقت بالانصراف يوحي إليه ذلك اللقاء الحميم بأبيات شعرية جميلة تصور ذلك اللقاء وما جرى فيه حيث يقول(٤) :

رعى الله ليلاً لم يرح بمذمم عشية وارانا بحور مؤمّل
وقد خفقت من نحو نجد أريجة إذا نفحت هبّت بريا القرنفل
وغرد قمري على الدوح وانثنى قضيب من الريحان من فوق جدول
يرى الروض مسروراً بما قد بدا لنا عناق وضم وارتشاف مقبّل

لكن الحبيبة العاشقة بعد اطلاعها على هذه الأبيات الجميلة التي تفيض بشراً وسروراً وأملاً ترى أمراً آخر يختلف تماماً عما يراه حبيبها فترد بأبيات متشائمة فيها التوجس والغيرة وترى الطبيعة الجميلة بما فيها على غير حقيقتها فتقول(٥) :

لعمرك ما سرّ الرياض بوصلنا ولكنه أبدى لنا الغل والحسد

٤– وينظر م . ن : ١٧٩/٤ .
٥- الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس : د. محمد مجيد السعيد ص ١٧٨ .
١ - النفح : ١٧٥/٤ .
٢– م . ن :١٧٧/٤ .
٣-م . ن : ١٧٧/٤ - ١٧٨ .

ولا صفق النهر ارتياحاً لقربنا ولا غرد القمرىّ إلاّ لما وجد
فلا تحسن الظن الذي أنت أهله فما هو في كل المواطن بالرشد
فما خلت هذا الأفق أبدى نجومه لأمر سوى كيما تكون لنا رصد

أما الشاعرة أم الهناء بنت القاضي أبي محمد بن عبد الحق بن عطية فقد ذكر لها المقري قطعة غزلية رقيقة تعبر فيها عن سرورها وسعادتها لأنها استلمت كتاباً من حبيبها يعدها فيه ويمنيها بالزيارة فلا تتمالك نفسها فتنهل دموعها فرحاً واستبشاراً بالبشرى السارة فتقول(١) :

جاء الكتاب من الحبيب بأنه سيزورني فاستعبرت أجفاني
غلب السرور عليّ حتى أنه من عظم فرط مسرتي أبكاني
يا عين صار الدمع عندك عادة تبكين في فرح وفي أحزان
فاستقبلي بالبشر يوم لقائه ودعي البكا لليلة الهجران

ومن الشعر الشاكي الحزين نقرأ بيتين للشاعرة قسمونه بنت إسماعيل (من القرن السابع الهجري) فالشاعرة قسمونة تنظر إلى جسدها فترى روضة يانعة قد حان قطافها ولكن ليس من يد تمتد إليها لتقطف ذلك الورد وتجني تلك الثمار فتأسف لذلك وتتألم لأن الشباب يمضي مضيعاً وفي قلبها عاطفة لشخص ما فتقول(٢) :

أرى روضة قد حان منها قطافها ولست أرى جان يمدّ لها يدا
فوا أسفاً يمضي الشباب مضيعاً ويبقى الذي ما أن اسميه مفردا

المبحث الثاني

معاني الغزل الجريئة (غير المحافظة)

تناولنا في المبحث السابق معاني الغزل العفيفة (المحافظة) وفي هذا المبحث سنتناول معاني الغزل الجريئة (غير المحافظة) وهي تلك المعاني التي تجاوزت عرف المجتمع وتقاليده وتمردت على مقاييسه ومعاييره .

وهذا اللون من الشعر ظهر في الأندلس في القرن الخامس الهجري بعد أن فقد المجتمع الأندلسي تماسكه وضعفت الأواصر التي كانت تشد بناءه وانغمس الناس في الترف المادي والتردي الاجتماعي وانغمست المرأة وتردت فكانت تتغزل في الرجل كما يتغزل بها وكانت تلح في إغرائه وإغوائه وتصف مفاتنها ومحاسنها ولم تكتفي بذلك بل كان يستبد بها الشوق والرغبة الملحة فتذهب إليه زائرة .

أما المعاني التي دار حولها هذا الغزل فتتمثل بالتصريح بالحب وإشهاره ورغبة ملحة في طلب خلوة بالحبيب والانفراد به ومنه وصف لقاء بين حبيبين تصور فيه الشاعرة ليلة من ليالي مباذلها ، أو الشكوى المرة لفراق الحبيب والتصريح بالشوق إليه وإخبار الحبيب بترقب موعد الزيارة ليلاً لأن الليل أكتم للسر ، ومن تلك المعاني تخيير الحبيب بأن يزور أم يزار لأن قلب الحبيبة متلهف لتلبية ما يشتهيه الحبيب يصاحب ذلك وصفاً للمفاتن والمحاسن وصف فيه إغراء وإغواء .

٤- م . ن : ٢٩٢/٤ .
١ - النفح : ٣ / ٥٣٠ .

ومنه زيارة الحبيب في داره ووصف رائع لسحر العيون وخمر الرضاب وورد الخدود كل ذلك مع طلب الأذن للسماح بدخول دار الحبيب . أو الثناء على ثنايا الحبيب ووصف لقبلة من قبلاته التي ذاقت فيها خمر رضابه.

والملفت للنظر في هذا اللون من الشعر أن الشاعرات اللواتي صدر عنهن كنّ أميرات من بيت الملك أو من الطبقة الراقية في المجتمع.

فأم الكرام بنت المعتصم بن صمادح كانت أميرة حيث كان والدها ملك المرية و (كانت تنظم الشعر وعشقت الفتى المشهور بالجمال من دانية المعروف بالسمار وعملت فيه الموشحات)[1] .

إنّ مركز الأميرة أم الكرام الصمادحية يحتم عليها العفة والاحتشام والرزانة والكتمان ومداراة العواطف ، يحتم عليها الاحتفاظ بكبريائها ووقارها كونها امرأة أولاً وأميرة ثانياً ولكننا نرى ذلك البدر المتعالي في سمائه المشع بأنواره وأضوائه ينزل من ذلك الأفق العلوي إلى الترب ، فتحب فتى من فتيان قصر أبيها فيخرجها ذلك الحب عن وقارها وحشمتها فإذا بها تنادي الناس بأعلى صوتها وتطلب إليهم أن يتعجبوا معها مما سببه الحب لها من حرقة ولوعة فتقول[2] :

يا معشر الناس ألا فاعجبوا مما جنته لوعة الحب
لو لاه لم ينزل بدر الدجى من أفقه العلوي للترب
حسبي بمن أهواه لو أنه فارقني تابعه قلبي

ولم تكتف الأميرة العاشقة بذلك بل تسترسل في عبثها بعد أن يلح عليها الشوق ويكويها ألم الجوى فتطلب خلوة بحبيبها علّها تطفئ لظى قلبها ولهيب أشواقها فتقول[3] :

ألا ليت شعري هل سبيل لخلوة ينزه عنها سمع كل مراقب
ويا عجباً أشتاق خلوة من غدا ومثواه ما بين الحشا والترائب

ولكنها تعجب من نفسها فكيف تشتاق خلوة بالحبيب الذي غدا قلبها مثواه.

أما الأميرة الثانية التي قالت شعراً غزلياً جريئاً فهي (ولادة بنت المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن ....أديبة شاعرة جزلة القول حسنة الشعر كانت تمالط الشعراء وتساجل البرعاء....ولم يكن لها تصاون يطابق شرفها)[4] وقد وصفها ابن بسام ((بطهارة الأثواب)) ثم قال بعد ذلك بسطر (وأوجدت إلى القول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذّاتها)[5] وهذا تناقض واضح فكيف توصف بطهارة الأثواب ثم بقلة المبالاة والمجاهرة باللذات . ومن قلة مبالاتها زعموا أنها كتبت على أحد عاتقى ثوبها[6] :

أنا والله أصلح للمعالـي وأمشي مشيتي وأتيه تيها

وكتبت على الأخر :

٢– م . ن :١٧٠/٤ .
١- النفح : ١٧٠/٤ .
٢- المغرب : ١٢١/٢ .
٣- الصلة : ٦٥٧/٢ .
٤- الذخيرة : ق١ م١ /٤٢٩ .
٥-م . ن .

وأمكّن عاشقي من صحن خدّي　　　وأعطي قبلتي من يشتهيها

وفي أول لقاء لها مع ابن زيدون بعثت إليه ببيتين من الشعر الجميل تحدد له في أولهما موعداً للقاء ليلاً لأن الليل أكتم للسر وفي ثانيهما توضح له ما تعانيه وتكابده بسبب حبه إذ تقول[١] :

ترقب إذا جنّ الظلام زيارتي　　　فإني رأيت الليل أكتم للسرّ

وبي منك ما لو كان بالبدر ما بدا　　　وبالليل ما أدجى وبالنجم لم يسر

وذكر ابن زيدون نتيجة ذلك اللقاء قائلاً : (وبتنا بليلة نجني أقحوان الثغور ونقطف رمّان الصدور)[٢] .

أما نزهون بنت الكلاعي الغرناطية فقد كانت جريئة أيضاً في غزلها وقد جاء في وصفها أنها كانت تتميز بخفة الروح والانطباع الزائد والحلاوة وحفظ الشعر والمعرفة بضرب الأمثال مع جمال فائق وحسن رائق وكانت ماجنة[٣] .(وقد كان في سلوكها وشعرها نوع من التحلل والابتذال والفحش مما يشير إلى نفسية متحررة ماجنة لا تعرف الخفر والحياء اللذين يستحبان في المرأة ويطلبان منها)[٤].

وكان الوزير أبو بكر بن سعيد أولع بمحاضرتها ومذاكرتها ومراسلتها وكانت بينهما روابط عشق ومن شعرها الغزلي الذي تصف فيه ليلة من ليالي مباذلها وإسفافها قولها[٥] :

لله درّ الليالي ما أحيسنها　　　وما أحيسن منه ليلة الأحد

لو كنت حاضرنا فيها وقد غفلت　　　عين الرقيب فلم تنظر إلى أحد

أبصرت شمس الضحى في ساعدي قمر　　　بل ريم خازمة في ساعدي أسد

وقد أبدعت الشاعرة في بيتها الثالث إذ رسمت صورة مشرقة جميلة أجادت في توزيع ألوانها وأضوائها ومشاهدها إذ صورت لنا مشهداً غرامياً وقد تأودت أعطاف بأنها بين يدي حبيبها وأبرزت فيها مفاتنها إلى جانب صفات الحبيب .

أما الشاعرة الأكثر اندفاعا في تعاطي معاني الغزل الجريئة فهي حفصة بنت الحاج الركونية (القرن السادس الهجري) التي هامت بالوزير أبي جعفر أحمد بن سعيد وزير بني عبد المؤمن وقد دفعها ذلك الحب وذلك الهيام إلى الغيرة عليه غيرةُ غير معهودة إذ تغار عليه من المعلوم والمجهول من الزمان والمكان وفي ذلك تقول[٦] :

أغار عليك من عيني رقيبي　　　ومنك ومن زمانك والمكان

ولو إني خبأتك في عيوني　　　إلى يوم القيامة ما كفاني

٦-م . ن : ق١ م١ /٤٣٠ .

٧-م . ن .

١- أنظر النفح : ٢٩٥/٤ - ٢٩٨ .

٢- الشعر في عهد المرابطين والموحدين في الأندلس : ص١٧٥ .

٣- النفح : ٢٩٨/٤ .

٤-م . ن : ٤/ ١٧٦ .

أي حب هذا الذي يدفع المرأة إلى الغيرة على حبيبها من كل شيء حتى أنها تغار منه عليه ٠(وفي حب أبي جعفر تفقد حفصة دلال المرأة وكبرياءها فالمرأة مهما لجّ بها العشق ومهما صنعت بها الصبابة فأنه يجمل بها ولو من باب المراعاة لجنسها أن تخفي بعض ما تجد وان تكون مطلوبة لا طالبة ومرغوبة لا راغبة وان تتظاهر بكونها معشوقة لا عاشقة ، ولكن حفصة تضرب بكل ذلك عرض الحائط ويستبد بها الشوق إلى صاحبها فتبعث إليه بهذه الأبيات[1] :

أزورك أم تزور فـأن قلبي   إلى ما تشتهي أبداً يميل
فثغري مورد عذب زلالٌ   وفرع ذؤابتـي ظل ظليل
وقد أمّلت أن تظمأ وتضحى   إذا وافـى إليك بي المقيل
فعجّل بالجواب فما جميل   إباؤك عن بثينة يا جميل[2]

إنها مقطوعة شعرية رائعة أبدعت الشاعرة نسجها وأحكمت صياغتها وكل تعليق وكل توضيح يتضاءل أمام هذه الألفاظ الموحية الغنية بمعانيها وظلالها وإشعاعاتها.

والبيت الثالث ضمنته الشاعرة لفظتين قرآنيتين وهما (تظمأ ، وتضحى) وقد اقتبستهما من قوله تعالى مخاطباً آدم علي السلام ومحذّراً إيّاه من إبليس **[**وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى**]** (طه:١١٩) .

فجعلت الشاعرة من نفسها فردوساً يلوذ به الحبيب فلا ظمأ ولا رمض بل ظل ظليل .

ولم تكتف الشاعرة العاشقة بهذه الخطوة الجريئة وهي تخيّر حبيبها (أزورك أم تزور) بل أردفتها بخطوة ثانية أكثر جرأة واندفاعاً ، لقد نسيت الشاعرة ـ في ذروة ثورة عواطفها ـ نسيت أنوثتها وكبرياءها ووقارها فذهبت إليه بنفسها زائرة تطرق بابه بجرأة وقد هيأت بطاقة ضمنتها أبياتاً شعرية جميلة تصف فيها مفاتن جسدها وتغريه بنفسها محرضة إياه طالبة منه الأذن بالدخول ، ودفعت بتلك البطاقة إلى جاريته . جاء فيها[3]

زائر أتى بجيد الغزال   مطلع تحت جنحه للهلال
بلحاظ من سحر بابل صيغت   ورضاب يفوق بنت الدوال
يفضح الورد ما حوى منه خد   وكذا الثغر فاضح للآلـي
ما ترى في دخوله بعد إذن   أو تراه لعارض في انفصال

وينقل صاحب النفح تلك القصة كما رواها أبو جعفر بن سعيد قال : (أقسم ما رأيت ولا سمعت بمثل حفصة ومن بعض ما أجعله دليلاً على تصديق عزمي وبر قسمي أني كنت يوماً في منزلي مع من يحب أن يخلى معه من الأجواد الكرام على راحة سمحت بها غفلات الأيام ، فلم نشعر إلاّ بالباب يضرب فخرجت جارية تنظر من الضارب فوجدت امرأة فقالت لها : ما تريدين ؟ فقالت : ادفعي لسيدك بهذه الرقعة فجاءت برقعة فيها :

٥ـ الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه : ص ٢٢٥ ٠
١ـ النفح : ١٧٨/٤ .
٢ـ م . ن : ١٧٩/٤ .

زائـر أتى بجيـد الغزال   مطلع تحت جنحـه للهلال

......

قال : فعلمت أنها حفصة وقمت مبادراً للباب وقابلتها بما يقابل به من يشفع لـه حسنه وآدابه والغرام به ...)[1] .

ولحفصة الركونية بيتان من الشعر تتحدث فيهما عن تجربة حقيقية تصف فيهما قبلـة من قبلاتها رشفت فيها ريق الحبيب الذي هو الذ من الخمر فتقول[2] :

ثنائـي على تلك الثنايـا لأننـي   أقول على علم وأنطق عن خبر

وانصفها ـ لا أكذب الله ـ إنني   رشفت بها ريقاً أرقّ من الخمر

الخاتمة

بعد المقدمة التي بينا فيها سبب اختيار الموضوع والخطة التي سرنا عليها مهدنا للموضوع مبينين الأسباب التي هيأت لظهور هذا اللون من الشعر الغزلي الذي اتسم بعضه بالجرأة والخروج عن المألوف وكان أول تلك الأسباب طريقة دخول الفاتحين المسلمين إلى بلاد الأندلس كجيوش منظمه لم يصحبوا فيها زوجاتهم فاحتاجوا إلى النساء فتزوجوا من أهل البلاد أي من الاسبانيات النصرانيات . وثانيها : الحرية والتسامح الديني ، وثالثها : جمال الطبيعة في الأندلس ، وكذلك أسواق النخاسة التي كان يباع فيها الجواري والغلمان ، ومنها طبيعة الشخصية الأندلسية وحبها للتحرر والانطلاق وغيرها من الأسباب .

وقد لاحظنا أن معاني الغزل كانت تسير في اتجاهين . أولهما : يمثل معاني الغزل العفيفة (المحافظة) وثانيهما : يمثل معاني الغزل الجريئة (غير المحافظة) وتبين لنا من خلال البحث أن بعض الشاعرات قلن شعراً يمثل الاتجاهين ، وأن الشعر العفيف المحافظ قيل معظمه في القرون الأولى لدخول المسلمين بلاد الأندلس حيث كان المجتمع متماسكاً تشد بنيانه أواصر قوية ، وكانت المرأة متماسكة أيضاً لم يفسدها الترف والتبذل . وفي عصر ملوك الطوائف وما تلاه من قرون تجزأت البلاد وتفكك المجتمع وضعفت الروابط التي كانت تشد أجزاءه وتلم أشتاته وضعف الوازع الديني في النفوس وتكالب الملوك (أمراء الطوائف) على حطام الدنيا وانغمسوا في الترف والملذات وتكالب معهم الناس ، وفي هذه الظروف ظهر هذا اللون من الشعر .

والعربي والمسلم يحب المرأة أن تكون مطلوبة لا طالبة مرغوبة لا راغبة والمرأة الحرة إنما توصف بالحياء والإباء والالتواء والبخل والامتناع[3] وفي هذا المعنى يقول الشاعر الجاهلي سليك بن السلكة :

يعاف وصال ذات البذل قلبـي   وأتبـع الممنعـة النوارا[4]

وهذه الصورة التي أرادها الشاعر للمرأة كادت تتلاشى في المجتمع الأندلسي في القرون الأخيرة حيث تأثر هذا المجتمع بالقيم الاجتماعية الأعجمية للنصارى الاسبان

٣- م . ن : ١٧٩/٤ .

٤- م . ن : ١٧٣/٤ .

١- أنظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب حتى نهاية القرن الرابع الهجري: طه أحمد إبراهيم :ص ٤٢ .

٢- الأغاني ٣٥٥/٢٠ .

وغيرهم ، والدليل على ذلك أن المرأة الشاعرة تقول شعراً ماجناً في الهجاء تذكر فيه العورات وتقول شعر غزلياً صريحاً جريئاً ينشد ويذيع في المجتمع والمجتمع يتقبل ذلك ولا ينكره .

ولقد تحدث ابن رشيق عن هذه القضية مبيناً الفرق بين عادات العرب وعادات العجم . وذكر ذلك بعد أن أورد قصة لقاء عمر بن أبي ربيعة بكثير وإنشاده بعضاً من شعره فقال : (وكذلك قال له كثير لما سمع قوله :

قالت لـها أختـها تعاتبـها   لا تفسدن الطواف في عمر
قومي تصدي له لأبصره   ثم أغمزيه يا أخت في خفر
قالت لها : قد غمزته فأبى   ثم اسبطرت تشتد في أثري

أهكذا يقال للمرأة ؟ إنما توصف بأنها مطلوبة ممتنعة . قال بعضهم - أظنه عبد الكريم - : العادة عند العرب أن الشاعر هو المتغزل المتماوت ، وعادة العجم أن يجعلوا المرأة هي الطالبة والراغبة المخاطبة وهنا دليل على كرم النحيزة في العرب وغيرتها على الحرم)[١] وعليه فليس غريباً أن يظهر هذا اللون من الشعر في المجتمع الأندلسي وأن يتقبله ذلك المجتمع .

وإلى جانب من ذكرنا من شاعرات الغزل هناك عدد من الجواري الشاعرات اللواتي جلبن من المشرق قلن شعراً غزلياً رقيقاً منهن : الجارية العجفاء كانت لرجل فقير ثم اشتراها الأمير عبد الرحمن الداخل (ت ١٧٢هـ) [٢] ، والجارية (متعة) كانت عند زرياب ثم أهداها إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ - ٢٣٨هـ)[٣] . والجارية قمر جلبت من بغداد لإبراهيم بن الحجاج ، وغاية المنى قدمت إلى ملك المرية المعتصم بن صمادح[٤] (٤٤٣ - ٤٨٤هـ) .

وشعر هؤلاء الجواري ليس له نصيب من الأندلس إلاّ المكان وإلاّ فأن روحه وصياغته مشرقية ولذلك لم نعرض له.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة : د. أحمد هيكل ، دار المعارف بمصر - الطبعة السادسة - ١٩٧١م.
٢. الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه : د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٧٥م .

١- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : ابن رشيق - ١٢٤/٢ .
٢- النفح : ٢٨٦/٤ .
٣- م.ن. : ١٣١/٣ .
٤- م.ن. : ٢٨٦/٤ .

٣. الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني ، تحقيق أحمد عبد الستار فراج ، دار الثقافة بيروت ـ ١٩٦٠م .
٤. تاريخ الفكر الأندلسي : آنخل جنثالث بالنثيا . ترجمة : حسين مؤنس ، مكتبة النهضة العربية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٥م.
٥. تاريخ النقد الأدبي عند العرب إلى نهاية القرن الرابع الهجري : طه أحمد إبراهيم ، دار الحكمة . دمشق ١٩٧٢م .
٦. جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس : أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي المتوفى سنة ٤٨٨هـ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦م.
٧. ديوان ابن خفاجة : تحقيق السيد مصطفى غازي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٠م .
٨. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ) تحقيق : د.احسان عباس ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ـ تونس (١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م) .
٩. الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس : د.محمد مجيد السعيد ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ـ بغداد ـ دار الرشيد للنشر ـ ١٩٨٠م
١٠.الصلة : لابن بشكوال أبي القاسم خلف بن عبد الملك ، نشره السيد عزت العطار ، مكتبة المثنى ـ بغداد ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ١٩٥٥م.
١١. طوق الحمامة : ابن حزم الأندلسي ، تحقيق صلاح الدين القاسمي ، دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد ـ الدار التونسية للنشر ـ ١٩٨٦م.
١٢ . العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : ابن رشيق ، دار الجيل ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة ـ ١٩٧٢م.
١٣. فوات الوفيات : محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤هـ ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة بمصر.
١٤. في الأدب الأندلسي : د. جودت الركابي ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة ـ ١٩٧٠م.
١٥. مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس : عبيد الله بن خاقان بن عبد الله القيسي الاشبيلي المتوفى سنة ٥٢٩هـ ، تحقيق محمد علي شوابكة ، بيروت ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الأولى ، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م.
١٦. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : أحمد بن محمد المقرّي التلمساني ، تحقيق : د.احسان عباس ، دار صادر ـ بيروت ـ ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.